



هناك أقفال تمنع افتتاح أبواب التفكير، وهناك مغاليل تسد كل منافذ التعقل، ومن هذه الأقفال والمغاليل:
أولاً: التعالي واعتقاد الرفعة بالمنهج والفهم والعلم، فمشكلة المذاهب المتعالية أنها تغلق على نفسها بذلك كل باب للإصلاح:

فعدمها كفر الخوارج الصحابة - رضوان الله عليهم - وكل الأمة ممن لم يدخل في فئتهم، أصبحوا محاطين بسياجٍ غليظ من أن يستفيدوا من سادة الأمة علمًا وإيماناً (وهم الصحابة رضوان الله عليهم)؛ إذ كيف يُؤخذ الدين من الكفار؟! وأنى يُؤتمن الكفار على العلم والإيمان؟

وعندما تحكم أي طائفة بـكفر مخالفتها أو بضلالهم بغير حق، لا يمكن أن تستفيد منهم، ولو كان مخالفوهم محقين. ولن تعرف هذه الطائفة خطأها، مادامت محيطةً نفسها بـسياج هذا التعالي.

ثانياً: السطحية في تناول مسائل العلم، تجعل العمق فيه تفيقاً وتأويلاً محرفًا وإخراجاً للنص عن ظاهره المراد.

مع أن ظاهره قد يكون غير مراد أصلاً، أو مع أن ظاهره في حسبانهم قد لا يكون هو ظاهره في الحقيقة؛ إلا في سطحية فهمهم للنص وضعف ملكتهم اللغوية أو الذهنية في الاستنباط.

فإذا انضم التعالي إلى السطحية: أصبح التعليم والتفهم في غاية الصعوبة؛ إذ كيف يفهم من يعد الفهم الصحيح مغالط خادعة وتفاصيل باطلة؟!

وهذا ما وقع للخوارج أيضًا، وكانت السطحية في فهم النص هي إحدى أبرز علاماتهم في النص النبوى، عندما قال صلى الله عليه وسلم: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)، فمن معانى هذا التشبيه البليغ: أنهم يقرؤون القرآن بسطحية بالغة، فلا يفهمون فقهه الحقيقى.

ولا نجاة لصاحب السطحية من سطحية من سطحية؛ إلا بتزكية نفسه، ليقبل الاعتراف بسطحية أولاً، ثم بحاجته إلى التعلم ثانياً.

أما بغير ذلك، فلن يزداد إلا بعدها! ولذلك كان هذا هو أحد معانى القول السابق للنبي صلى الله عليه وسلم عن الخوارج: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم): أي لا يصل إلى قلوبهم فيزكيها، فهم كالأرض السبحة الخبيثة، لا يؤثر الغيث ومامأوه

المبارك فيها، فلا تنبت نبتاً ولا تحفظ ماءً.

ثالثاً: اتباع الهوى والتعصب.

فلا شك أن اتباع الهوى من أعظم مغاليق الإصلاح، وهو من أعظم الصواد عن الحق.

لكنَّ كثيراً من الناس يظن اتباع الهوى ينحصر في الصورة الصريحة له، وهي صورة من عرف الحق كما يعرف نفسه، ويصرّ مع ذلك على باطله.. استكباراً واضحاً وعناناً مفضوحاً.

وهذا الحصر غير صحيح؛ لأنَّ من أعظم صور اتباع الهوى خطراً ومن أكثرها انتشاراً: عندما يختلط اتباع الهوى بشبهة، فكلما أراد صاحب هذه المعركة النفسية أن يحاكم الشبهة وحدها خذله اتباعه لهواه، فعجز عن اكتشاف خللها.

وكلما أراد أن يحاكم اتباعه لهواه صرفاً خانته شبهته عن رؤية اتباعه للهوى، فاستمر منجرأً لحبيل هواه يقوده إلى الباطل. فلا يزال كذلك، في دوامة بين الشهوة والشبهة، حتى يهلك، أو ينقذه الله تعالى بهدايته، ثم بصدقه هو في ابتغاء معرفة الحق واتباعه.

ولذلك كان الخوارج يصدون أنفسهم عن محاكمة النفس بكثرة العبادة الظاهرة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (تحقرن صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم).

فهم (من جهة) يصلون ويصومون ويتبعدون كي يستشعروا التفوق الإيماني على الصحابة -رضوان الله عليهم- فيتعالون على الاستفادة منهم، وهم (من جهة أخرى) يصلون ويصومون ويتبعدون كي يخادعوا أنفسهم بعدم انسياقهم لأهوائهم! ولذلك كان قد استوقفني حديثٌ صحيح لأحد الصحابة، وهو جندي بن عبدالله البجلي -رضي الله عنه-. يحكي أنه لما رأى شباباً في مسجد البصرة يصلون ويتبعدون، وعلم (فيما يبدو) أنهم يحملون فكر الخوارج؛ لأنهم قد خرجوا بعد ذلك فعلاً فنظر -رضي الله عنه- إليهم، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من يُسمعُ يُسمِّعُ الله به، ومن يرائي يرائي الله به).

وكان مما وعظهم به أيضاً: قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما أتَخوَفُ عَلَيْكُمْ رجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُهُ بِهِجْتَهُ، وَكَانَ رَدَاءً لِلْإِسْلَامِ، اعْتَزَلَ إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَخَرَجَ عَلَى جَارِهِ بِسَيْفِهِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ)، فكان هذا ما وقع من الخوارج قديماً وحديثاً. فكنت أتعجب من سبب قول هذا الصحابي لهذا الحديث: (من يُسمِّعُ يُسمِّعُ الله به، ومن يرائي يرائي الله به)، وهو إنما رأى قوماً يصلون ويتبعدون، والقلوب ونياتها إنما علمها عند الله تعالى.

لكني لمّا علمت علاقة خبث النفس بمخادعة كثرة العبادة الظاهرة لها عن علاج دائتها، علمت لماذا اتهم هذا الصحابي الجليل -رضي الله عنه- عباد الخوارج بالرياء والسمعة؛ لأن العبادة الزكية (الخالصة) تركي النفس، وأماماً عبادة هؤلاء فتدسّسُها وتُخْبِثُها؛ لأن الدافع إليها عندهم إنما هو خداع النفس بالظهورية والنقاء، لكي لا تنتبه لاتباعها حظوظها، ولا تلحظ تعاليها عن الحق واغترارها الذي يمنعها عن التواضع لمن هو أعلم وأفقه منها.

وهكذا تنغلق أبواب النفع عن القلب، وتنطمس منافذ النور إليه، فلا يكاد يزداد صاحب هذا الانغلاق من الله إلا بُعداً، ومن العلم إلا جهلاً، ومن الحق إلا بُغضنا !!

المصادر: